حين عقد مؤتمر بازل الصهيوني الأول عام ١٨٩٧، حضره ٢٠٤ رأسماليين من ١٥ دولة في سعي جدي لإحياء الشخصية اليهودية، وتوجيه الأنظار لفلسطين، وتمخض عنه عدة قرارات أهمها، تأسيس منظمة عالمية، بناء مؤسسات يهودية، تعزيز الاستيطان في فلسطين، وانتزاع اعتراف دولي. كان لكلمة هرتزل رئيس المؤتمر وقعها وتأثيرها على القرارات حيث قال (إن معاداة السامية منحتنا القوة الذاتية... إن الصهيونية عودة اليهود لليهودية... أهمية الوعد الدولي) ودحرت مقترحات الحاخام هيرش الذي اقترح أن يكون الاستيطان في الأرجنتين، ومقترحات البوند الروسي الذين أيدوا أن يكون المشروع في أوغندا. وتماثل هرتزل العلماني مع عالم التلمود الروسي ليفي بأن (أرض إسرائيل لشعب إسرائيل) تماشياً مع ما جاء في التوراة (الإصحاح العاشر) بأن (كل ما تطؤه أقدامكم لكم من نهر الفرات إلى البحر الكبير) وكتب هرتزل في يومياته عقب بازل (لو شئت اختصار بازل بكلمة واحدة، سأحاول جاهداً عدم نشرها، لكانت: بازل أنشأت الدولة اليهودية وخلال خمسين عاما سيعرف العالم هذا). وجاءت بازل التي استفادت من التوراة أشد تطرفا منها. ففي سفر يشوع يجري الإقرار بأن فلسطين ليست خالية، (تقدموا لأن الرب سيعمل الأعاجيب، يطرد أمامك الكنعانيين، الحثيين، اليبوسيين، الأموريين...) وفي سفر القضاة (بقي الكثير من الشعوب تحت سيطرة اليهود) أما مقولة هرتزل فكانت (فلسطين أرض بلا شعب واليهود شعب بلا أرض) تلك (الفكرة التي كررتها الدعاية الصهيونية ألف مرة – كتب مكسيم رودنسون – والتي تقول أن فلسطين في بداية القرن العشرين صحراء، هي فكرة خاطئة تماماً. ففلسطين كانت آهلة بسكانها) الأمر الذي يكشف الصهيونية، منذ البدايات، بأنها غير أخلاقية وعنصرية لا تعترف بالشعب الأصلاني وحقوقه، بل ولا تتورع عن تزوير التاريخ لخدمة أهدافها الاستعمارية، وهذا وحده كافٍ لاستمرار الصراع المفتوح في المنطقة.

لقد دخلت فلسطين منعطفاً كبيراً بعد أن دق بابها مشروع استعماري غربي بأداة صهيونية استيطانية كولونيالية. وراحت تعاني بأكملها، الشعب بأسره، بطبقاته وفئاته: الفلاحون والبدو، عمال المدن والمرافئ، الفئات الوسطى من حرفيين صغار وموظفين وأصحاب حوانيت، العوائل الاقطاعية والتقليدية بما تملكه من أطيان وتجارة.. وقد سهل قانون الطوائف العثماني على اليهود التسرب إلى فلسطين، فنشطت الهجرة اليهودية إليها سيما المؤتمر الصهيوني الخامس ١٩٠٥م قرر اعتبار فلسطين هدفا للمشروع الصهيوني إضافة إلى اعتماد اللغة العبرية. وفي عام ١٩٠٨م تقرر تشكيل حرس المستعمرات (هاشومير) وأنشئ معهد العلوم التطبيقة عام ١٩١٢م في حيفا والجامعة العبرية في القدس ١٩١٨م، وتجددت حمى زيارات البعثات الأكاديمية الأوروبية لدراسة